٢ - بين الفرس واليونان

ثلاث حضارات قديمة هى الحضارات الأولى فى التاريخ المعروف لنا وهى : الحضارة الفارسية ، أو البابلية حول نهر دجلة والفرات فى منطقة يطلق عليها المؤرخون اسم " ميزو بوتاميا " ، والحضارة اليونانية القديمة فى بلاد اليونان وجنوب أوروبا حتى حوض نهر الدانوب شمالا وأراضى إسبانيا وغاليسيا غربا ، ثم حضارة وادى النيل فى مصر .

ولعل أكبر صراع عسكرى بين الحضارات القديمة هو ذلك الصراع الذى نشب بين الحضارة الفارسية ، والحضارة اليونانية ، وكانت منطقة أسيا الصغرى أو شبه جزيرة الأناضول معبرا لجيوش هاتين الحضارتين هجوما ودفاعا . وكان الصراع الفكرى والدينى والسياسى والحضارى حادا بين هاتين الحضارتين القديمتين قبل الميلاد بمئات السنين ، وكان الاختلاف بين طبيعة وتكوين كل من الحضارتين اختلافا واضحا .

كانت الإمبراطورية الفارسية تكاد فى الغالب الأعم أن تكون دولة موحدة الأراضى تخضع كل أقاليمها لحكم ملك واحد ، بينما كانت بلاد اليونان تتكون من ممالك صغيرة ، ويكاد يحكم كل مدينة من المدن اليونانية ملك مستقل . كانت هنالك فى بلاد اليونان مملكة أثينا ومملكة إسبرطة ، ومملكة مقدونيا ، ومملكة أولنتوس ، ومملكة بيرنتوس ، ومملكة تراقيا ، ومملكة بيوثيا ، ومملكة ثيبا ، ومملكة هاليكارناسوس ، فضلا عن بعض الممالك فى كل جزيرة من الجزر الأيونية بالقرب من شواطئ بلاد اليونان .

وإذا كان الدين آنئذ يعتمد على ما يوهم به الكهانُ الشعبَ فى كل من هاتين الحضارتين دون وجود أى صلة حقيقية بالوحى الإلهى الصحيح ، مع شيوع أساطير عن آلهة من نسج خيال الكهان ، ومحترفى الدجل الدينى ، مع شيوع

بعض الأشعار وبعض الطقوس والأعياد الدينية ، مع التنسيق مع الملوك والحكام ليساند الكهنة ورجال الدين الملوك والحكام ، ويجزل الملوك والحكام العطايا لرجال الدين ويسمحون لهم أن يأخذوا النذور والهبات والتبرعات من أبناء الشعب ، فلقد كان هناك إله مزعوم لدى الفرس وفى بلاد بابل وآشور هو " بعل " مثلا أو هو "النار " التى كان يعبدها المجوس فى بلاد فارس فى الغالب الأعم ، وكانت بلاد اليونان تحفل بكثير من الآلهة المزعومة ، بل كان لكل دولة مدينة الكثير من الآلهة والأرباب التى صنعوها بأنفسهم ! .. تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

ولكن المفارقة ذات التأثير الأعظم فى حياة الناس بين هاتين الحضارتين المتصارعتين المتصادمتين منذ مئات السنين قبل الميلاد كانت تتمثل فى نظام الحكم وإدارة الحياة السياسية فى الدولة . وبينما كان الملك الفارسى يحكم كل أقاليم الإمبراطورية الفارسية حتى لو اتسعت من الهند شرقا حتى شبه جزيرة الأناضول غربا بما فى ذلك إيران والعراق وتركيا فى الحاضر حكما مركزيا من عاصمة مملكته . كان لكل مدينة فى بلاد اليونان حكومة مستقلة يكاد الشعب فيها يحكم نفسه بنفسه فى نظام يمكن أن نطلق عليه النظام الديموقراطى البدائى .

وخلاصة القول هى : أن الحضارة الفارسية البابلية الآشورية كانت متعارضة كل التعارض مع الحضارة اليونانية ، وكان انقسام بلاد اليونان إلى ممالك صغيرة عديدة لا تعدو كل منها أن تكون مدينة واحدة يغرى الفرس بأنهم يستطيعون أن يخضعوا بلاد اليونان لسيطرتهم ، كما أن اعتزاز اليونان بمقومات حضارتهم ، وبالحرية التى كانوا يمارسونها ، وبمباهج الحياة التى كانت تتوافر لدى اليونان من جراء نشاطهم التجارى الواسع الآفاق ، هذا وذاك وكله كان قد جعل الإنسان اليونانى يحتقر حياة الإنسان الفارسى ، ويعتبره بمثابة وحش يلزم قتله قبل أن يصيبه الوحش بالأذى .

ويتضح لنا مدى التنافر بين الحضارة الفارسية ، والحضارة اليونانية من تلك المشورة التى أشار بها مستشار ملك إحدى الولايات اليونانية وهو "كرويسوس" ملك ليكيديمونيا ، عندما سأله ما إذا كان من المفيد أن يشن الحرب على الفرس فقال له : " أيها الملك ! ماذا ستستفيد من هذه الحرب على الفرس ؟ إن ملابسهم إنما هى قمصان قصيرة من جلود الحيوان ، وهم يأكلون أى شىء يجدونه ، ولا يتناولون أى طعام شهى على الإطلاق . إنهم يعيشون فى أرض وعرة ، ويأكلون ما يجدونه أمامهم. إنهم لا يتناولون " النبيذ " ؛ لأنهم لا يعرفون كيف يصنعونه ، بل يشربون الماء القراح . وليس لديهم فواكه مثل التين ليتناولوا شيئا منه بعد تناولهم الطعام ، وليس لديهم أى طعام طيب على الإطلاق . إن كانت الغلبة لك، فماذا ستأخذ منهم ، وإن كانت الغلبة عليك تستطيع أن تتصور ما سوف يأخذونه منك . ولو أنهم ذاقوا خيرات بلادنا ولو مرة واحدة لتشبثوا بالبقاء فيها ، ولن نستطيع إقصاءهم عنها ، ولو أقصيناهم مرة عادوا إليها كرة أخرى . إننى أشكر الإله لأنه لم يأمر الفرس أن يهاجموا بلاد اليونان . أنا لا أنصح يا مولاى أن نذهب نحن إليهم لكى نحاربهم ، والحرب معهم غرم لا غنم" .

هكذا كان اليونان ينظرون إلى الفرس وهكذا كان الفرس ينظرون إلى اليونان، ولا يفصل بين الدولتين إلا أراضى أسيا الصغرى أو ما يعرف بالأراضى التركية الآن . وكان لابد من الحرب والصدام .

وربما كان أول صدام عسكرى بين الفرس والرومان هو ذلك الصدام بين الملك اليونانى كرويسوس ضد جيش قورش ملك الفرس فوق أرض شبه جزيرة الأناضول شرقى بلاد اليونان وغربى الإمبراطورية الفارسية .

لم يقتنع كرويسوس بمشورة وزيره الحكيم ، بل لجأ إلى الكهنة فى المعبد وقدم لهم العطايا والهبات الجزيلة لكى يخلصوا له المشورة فقال له الكهنة بعد أن استلهموا الوحى فيما زعموا : إنه لو حارب الفرس سينتصر عليهم ويحطم

إمبراطوريتهم العظيمة . واندفع كرويسوس لملاقاة جيش قورش الفارسى فى معركة عند بلدة "باتريا Bteria " وانهزم جيش كرويسوس واضطر إلى الانسحاب ببقايا جيشه المهزوم . وطارد الفرس عدوهم المنسحب والتحم الجيشان فى معركة بالقرب من عاصمة مملكة كرويسوس عند بلدة ساردیس ، وانهزم جيش كرويسوس هزيمة ساحقة .

ومن طريف ما يروى أن اليونان كانوا يعتمدون على الفرسان برماحهم الطويلة فوق خيولهم . ولجأ قورش إلى حيلة بدائية ساذجة ليجنب جيشه خطر فرسان اليونان فوق جيادهم . عرف قورش أن الخيل تنفر من رائحة الجمال ، فحشد كثيرا من الإبل فى جيشه فى مواجهة فرسان جيش اليونان ، ونفرت الخيول من رائحة الجمال وجمحت من الفرسان ، وفرت بهم من المعركة ، وكان ذلك هو السبب فى النصر الحاسم لجيش قورش ، ووقع كرويسوس فى الأسر وقرر قورش أن يحرقه فوق كومة ضخمة من الحطب لولا أن كرويسوس كان يتمتم مرددا اسم " سولون " مما أثار حب استطلاع قورش ليعرف معنى كلمة "سولون " ، فأمر بالتوقف عن إعدام كرويسوس وسأله عن معنى كلمة "سولون " ، فقال له : إنه حكيم ومشرع يونانى كان يؤكد أنه لا يوجد إنسان سعيد على الإطلاق . وأعجبت هذه الحكمة قورش وأبقى على حياة كرويسوس واتخذه مستشارا له . أفكار بسيطة وخطط حرب بالغة البساطة كانت تسود بين الناس فى ذلك العصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد (٥٥٠ق . م) .

وعند اعتلاء " دارا " عرش مملكة الفرس سنة (٥٢١ ق . م) أخذ يتطلع إلى غزو بلاد اليونان . وقام بقيادة جيش كبير عبر به مضيق البوسفور ، ولكنه لم يتجه جنوبا نحو بلاد اليونان ، بل اتجه شمالا نحو حوض نهر الدانوب فى شرق ووسط أوروبا وتقهقر أمام جيشه الاسكيذيون الذين لم تكن لهم أى مدن كبيرة وظلوا يهاجمون وينسحبون ، ولحقت خسائر كبيرة بجيش دارا ، واضطر إلى التراجع ببقايا جيشه ، وفشلت هذه الحملة الفارسية شمال بلاد اليونان .

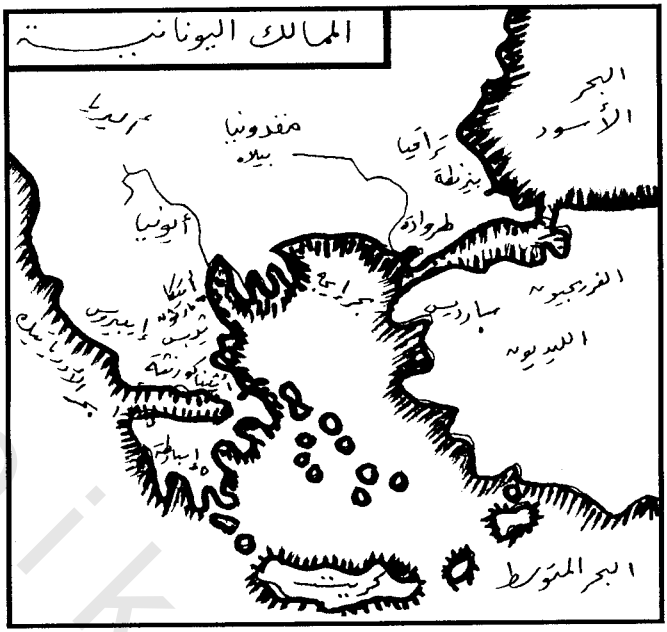

وعلى الرغم من فشل حملة دارا على بلاد اليونان ظل الفرس يتطلعون إلى غزو بلاد اليونان ، وجهزوا لذلك أسطولا كبيرا لمهاجمة جنوب اليونان من البحر. وكانت السفن تحمل أعدادا كبيرة من الخيول والفرسان ، ونزل جيش الفرس بالقرب من بلدة " ماراثون " فى مملكة " أتيكا " فى عام (٤٩٠ ق . م) .

وجرى أحد رجال بلدة " ماراثون " متجها نحو مملكة إسبرطة لكى يستنصرها لنجدة مملكة أتيكا ضد هجوم الفرس ، ووصل هذا العداء السريع واسمه هو "فيديبيدس Pheidippides" إلى إسبرطة فى ثمان وأربعين ساعة فقط ، وهبت إسبرطة لنجدة أتيكا . ولكن المقاتلين من أثينا وأتيكا كانوا قد تمكنوا من هزيمة ودحر الجيش الفارسى قبل وصول النجدة الإسبرطية إليهم . ومن الطريف أن الأثينيين كانوا قد اهتدوا إلى تاكتيك ناجح فى هذه المعركة ، إذ ركزوا هجومهم على جناحى الجيش الفارسى أولا ، ولما أجهزوا على الجناحين ضغطوا على قلب الجيش الفارسى وقضوا عليه . وفرح الأثينيون بهذا الانتصار الكبير وشاركهم الإسبرطيون الفرحة على الرغم من العداوة الكبيرة السابقة بين الأثينيين والإسبرطيين الناجمة عن حرب البيلوبونيز التى استمرت حوالى ثلاثين عاما . ولكن اليونانيين كان يجمع بينهم باستمرار التعاون فى الحرب ضد الفرس .

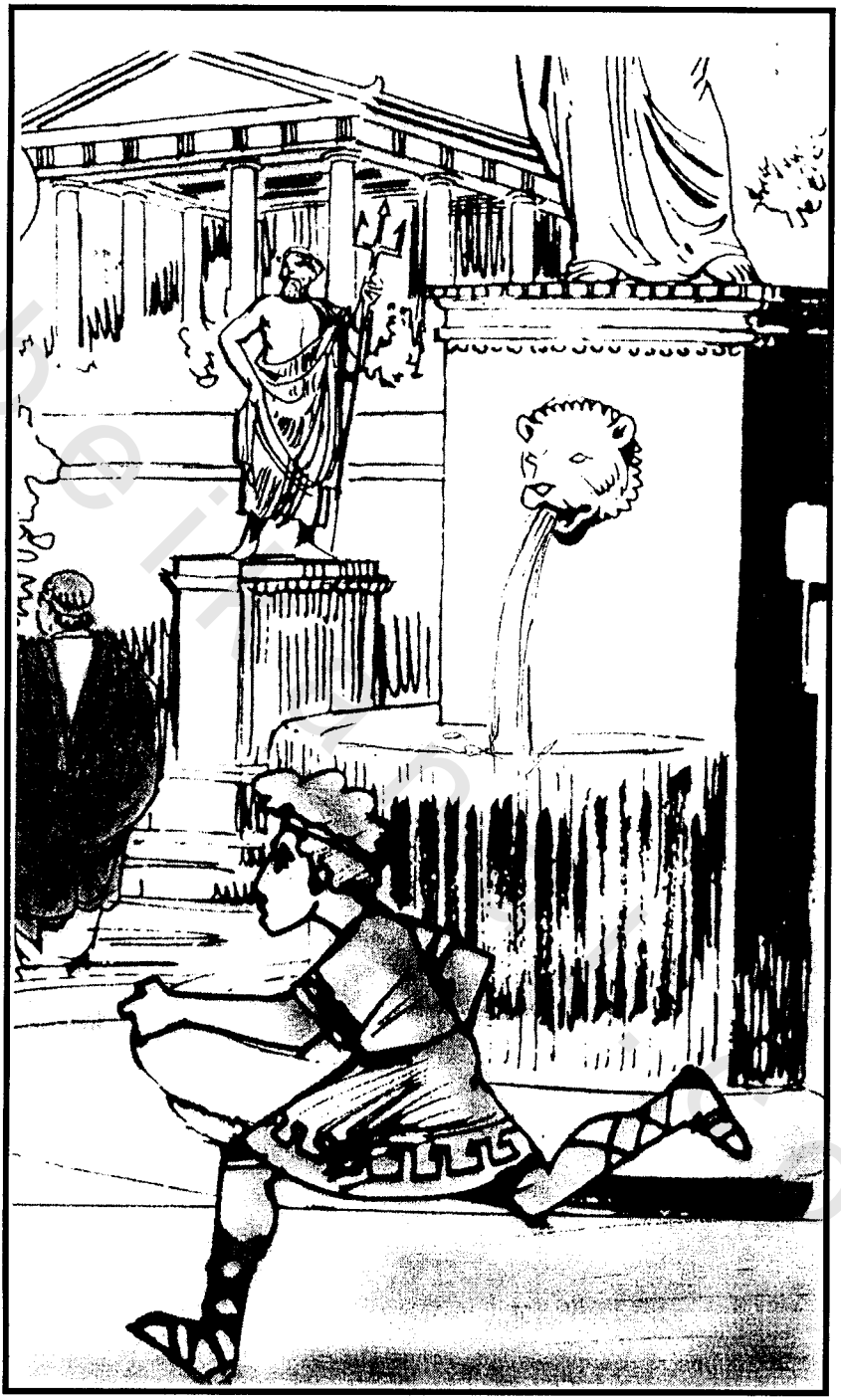

".. وجرى أحد رجال بلدة "ماراثون" متجها نحو مملكة إسبرطة
لكى يستنصرها لنجدة مملكة أتيكا ضد هجوم الفرس"

وذاعت أنباء انتصار اليونان على الفرس ، ووصل النبأ إلى دارا ، وتشجعت مصر فقامت بالثورة ضد الفرس بمساعدة اليونان ومات دارا ، وارتقى العرش بعده ابنه " إجزرسيس Xerxes " الذى عمد إلى إخماد الثورة فى مصر أولا ، ثم ظل إجزرسيس يجمع الجنود والعتاد ليخوض معركة حاسمة ضد اليونان ليضمن نجاح غزوه لبلادهم وليحقق حلم أبيه الذى كان يحلم بضم الولايات اليونانية إلى الإمبراطورية الفارسية .

وعبر إجزرسيس بجيشه الكبير مضيق الدردنيل وأخضع مدينة " طروادة " أولى الممالك اليونانية فى شرق اليونان ، وقام بزيارة قلعة الملك بريام ملك طروادة، وأقام جسرا كبيرا فوق مضيق الدردنيل ليربط بين شبه جزيرة الأناضول وبين بلاد اليونان.

وكان يرافق جيش الفرس أسطول كبير فى البحر ، ولكن عاصفة قوية هبت على الأسطول الفارسى وأغرقت منه أربعمائة سفينة . واستجمعت الممالك اليونانية كل ما لديها من جيوش ، ولكنها اضطرت إلى التراجع أمام الفرس فى وادى " تمبى Tempe " ، إذ إن الأرض المفتوحة كانت مناسبة لتقدم الفرس بسهولة ، وانسحبت الجيوش اليونانية من مملكة تساليا ، وقرروا أن يكون ميدان معركتهم الدفاعية عند مضيق ثرموبيلاى Thermopylae . ومن ذلك يتضح أن اليونانيين كانوا يعرفون جيدا كيف يستفيدون من طبوغرافية وطبيعة وتضاريس أرض المعركة ليختاروا المكان الذى يستطيعون فيه دون سواه الانتصار على العدو الذى يهاجم بلادهم . وكان ذلك المضيق عند " ثرموبيلاى " يمنع الفرس المهاجمين من استخدام الفرسان والمركبات فى الهجوم على اليونانيين ، وتمكن اليونانيون من إيقاف تقدم الفرس لمدة ثلاثة أيام .

وعلى الرغم من تسلل بعض فرسان الفرس إلى مؤخرة اليونانيين إلا أن ثلاثمائة جندى إسبرطى وسبعمائة من شباب مملكة " ثيبة " صمموا على الثبات ومنازلة فرسان الفرس تحت قيادة الإسبرطى " ليونيداس " حتى ماتوا عن آخرهم ، إذ كان الفرس يهاجمونهم من الشرق ومن الغرب ، ولكنهم أوقعوا بالجيش الفارسى خسائر فادحة وكانوا ستارًا قويًا لتحقيق انسحاب ناجح للجيش اليونانى الرئيسى الذى تراجع إلى مكان آخر مناسب للاستمرار فى الدفاع ضد الجيش الفارسى الذى واصل التقدم فى الأراضى اليونانية نحو أثينا ، وكان المكان المناسب للدفاع اليونانى يصل إلى مضيق كورنثة فى الجزء الجنوبى من بلاد اليونان . وكان معنى ذلك أن معظم الممالك والمدن اليونانية قد سقطت فى أيدى الفرس ، وانسحب أهل أثينا إلى جزيرة سلاميس ، وأصبحت المعركة الحاسمة معركة بحرية ، يقود أسطول اليونان فى هذه المعركة القائد " ثميستوكليس Themistocles " وكان الأسطول الفارسى يحمل كثيرا من البحارة اليونانيين الذين انسحبوا فجأة بسفنهم من المعركة ورفضوا أن يقاتلوا مواطنيهم اليونانيين، وكانت السفن اليونانية مزودة فى مقدمتها بقطع من الصلب المدبب الذى كان يخترق السفن الفارسية ويغرقها ، وحاقت الهزيمة بالأسطول الفارسى عند " سلاميس " ، وأصبح من المحتم أن ينسحب الفرس من كل الأراضى اليونانية ؛ لأنهم فقدوا – بخسارة أسطولهم – طريق إمدادهم .

واستمتع اليونانيون واحتفلوا بانتصارهم على آخر الغزوات الفارسية لبلادهم ، إذ لم يبق من الجيش الفارسى إلا جزء صغير تحت قيادة ماردوينوس الذى لم يلبث أن هزمه اليونانيون وقتلوه سنة ٤٧٩ ق . م . وقضى اليونانيون على بقايا الأسطول الفارسى أيضا عند بلاتايا ، ولم يلبث ملك الفرس إجزرسيس الذى كان يوجه الحملات والجيوش ضد بلاد اليونان أن قتل فى قصره سنة (٤٦٥ ق . م) . ولم تقم فارس بعد ذلك بأى غزو لبلاد اليونان .

".. كانت الممالك اليونانية تتحد وتتعاون للتغلب على الهجوم الفارسى لاغتصاب الأراضى اليونانية"

وهكذا كانت معارك ماراثون و ثرموبلاى وسلاميس هى أكبر المعارك بين الفرس واليونان ، وكان يتمثل فيها الهجوم الفارسى والدفاع اليونانى فى أعنف صوره . وكانت الممالك اليونانية تتحد وتتعاون للتغلب على الهجوم الفارسى لاغتصاب الأراضى اليونانية وضمها إلى الإمبراطورية الفارسية . وكانت الممالك اليونانية تعود إلى استقلاليتها وإلى التنافس فيما بينها بعد التخلص من الغزو الفارسى .

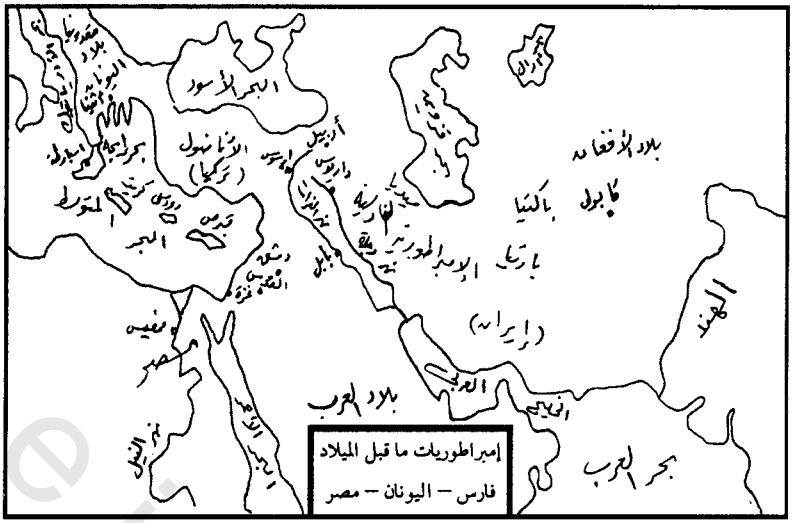

كان اليونانيون يدافعون عن حرية بلادهم ضد استعباد الفرس لهم ، وكان اليونانيون يتمسكون بحرية كل مدينة من مدنهم واستقلالها التام عن المدن الأخرى بنفس القوة وبكل ضراوة . كان اليونانيون يقدسون الحرية ، حرية أرض بلاد اليونان ضد الفرس ، وحرية كل مدينة يونانية بحيث لا تخضع لحاكم من مدينة يونانية أخرى. كان المواطن اليونانى فى إسبرطة يعتبر أن إسبرطة هى وطنه أو دولته ، ويرفض أن تخضع لحكم أثينا أو أن تتحد إسبرطة مع أثينا فى دولة واحدة ، وكان المواطن فى أثينا يرفض أن تخضع أثينا لحكم ملك مقدونيا ويكره ذلك كما كان يكره أن تخضع بلاد اليونان لحكم الفرس . ولعل فى هذا الإيضاح ما يوضح الجو السياسى والعسكرى والحضارى الذى سيجده الإسكندر الأكبر المقدونى عندما سيصل إلى مقاليد حكم مملكة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان .

كيف تعامل أبوه الملك فيليب مع هذه المدن اليونانية المستقلة التى كانت تتحد وتعقد الأحلاف للتصدى لأى مدينة تحاول إخضاع مدينة أخرى لنفوذها . وكيف سيتعامل الإسكندر الأكبر المقدونى مع هذه المدن اليونانية المستقلة التى يموت مواطنوها حفاظا على استقلالها ؟